

المؤتمر العالمي الثامن للوحدة الإسلامية

(99) - العرب ولغتهم، وللتدبر في أسلوب القرآن الكريم وموارد استعماله وقراءتها دخل كبير في ذلك، وأمّا محض الركون إلى آحاد اللغويين تعبداً بكلامهم وتقليداً لآرائهم فذاك ممّا لا ماساغ له، فإنّ الأغلب أو الغالب ممّا يستندون إليه في أقوالهم ما هو إلاّ الاعتماد على ما حصلونه بحسب إفهامهم وتبصّرهم لموارد الاستعمال مع الخلط للحقيقة بالمجاز، وعدم التثبت بالقرائن ومزايا الاستعمال. من شواهد ذلك قول جماعة من المفسّرين في تفسير قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ تَوَفَّيْكَ وَارْفَعْكُ إِلَيَّ وَامُطْهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} وَجَاءَ عَلَى الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوَقَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَخَذَكُمْ بِأَيْدِيكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (1) قالوا أي مميتك، وذلك أخذاً بقول اللغويين حيث جعلوا الإماتة في معنى التوفي، وكأنّهم لم يمعنوا النظر إلى مادّة التوفي واشتقاقه، ومحاورات القرآن الكريم والقدر الجامع بينها. فاتّضح لهم أنّ معناه الأخذ والاستيفاء وهو يتحقّق بالإماتة والنوم وبالأخذ من الأرض وعالم البشر إلى عالم السماء. هذا، ولا يخفى أن القرآن ناطق بأنّ المسيح ما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم ورفع الله إليه (2)، وأنّ عقيدة المسلمين كإجماعهم على أنّّه لم يمت بل رُفِعَ إلى السماء إلى أن ينزل في آخر الزمان، ومن هنا التجأ بعض من فسّر التوفيّ بالإماتة إلى أن يفسّر قوله تعالى: {يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ تَوَفَّيْكَ} أي مميتك في وقتك بعد النزول من السماء، ولكنّه لا يلائم قوله سبحانه - حكاية لقول عيسى -: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَُنِّي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَُنِّي كُنْتُ أَنتَ الرَّاقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (3). القاعدة الخامسة: علوم التصريف والنحو والاشتقاق: أمّا التصريف، فلأنّه تُعرف به الأبنية والصيغ؛ قال ابن فارس: ومن فاته علمه _____ 1- سورة آل عمران: 55. 2- وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ؟ سورة النساء: 157. 3- سورة المائدة: 117.